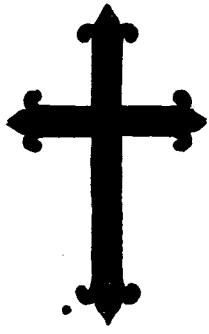

وفاة قداسة البابا

ايَّتها النفس أجملي جزعا انَّ الذي تحذرينَ قد وقعا

لقد انتابنا وانّا لله الخَطْبُ الجسيم الذي كنّا نخشاهُ منذ ايّام مترددين بين عاملي الرجاء والخوف فرُمينا بسهمهِ وكان السهم مصيبًا

مات لاون الثالث عشر

اعتاد الناس اذا ما فُجعوا ببعض الاحباب او رزئوا بأعلام الوطن وكبار الرجال ان يعظّموا المصاب ويسترسلوا في صفات الفقيد ويفيضوا في ما اورث القلوب من الحسرات . ونحن في النكبة التي الَّمت بنا اليوم لفي غنًى عن ذلك فانَّ في هاتين اللفظتين « مات لاون » ما يقوم مقام المراثي المطوّلة والاوصاف المسهبة

مات لاون ! وبموتهِ فقدت الكنيسة رأسها المنظور الذي ينوب لديها مناب السيّد المسيح ابن الله الحيّ فكان عميدها وسندها

يذبُّ عن حقوقها ويناضل عن حوزتها بازاء الملوك والقوّات البشريّة

مات لاون ! وبموتهِ خلا كرسيّ بطرس هامة الرسل الذي كان هو خلفهُ الثالث والستين بعد المائتين فجلس على عرشهِ بمجد باهر مدَّة نيف وربع قرن فشرَّف مقامهُ بفضائلهِ السامية واعمالهِ الممتازة ومآثرهِ العميمة

مات لاون ! وبموتهِ خسرت البابويّة احد رجالها العظام وقلَّ ما ظهر مثلهُ في فلك البيعة الكاثوليكية . فكان احسن ختام لعصر دُعي بعصر النور وايمن فاتحة لقرن جديد

مات لاون ! وبموتهِ أُصيب الثلثمائة الف الف من المؤمنين المتديّنين في اقاصي المعمور بأبٍ عرفوا حنوَّهُ واختبروا الطافهُ بادلَّة لا يفي بها احصاء . كان واسطة قلادتهم وعروتهم الوثقى الجامعة لكلمتهم ومنارهم اللامع الذي يستضيئون بهِ في انواء هذا العالم وظلماتهِ

مات لاون ! وكان موتهُ رزءًا صُدع بهِ مفرق ملوك الارض وكانوا يجلُّونهُ جميعًا على اختلاف مذاهبهم ونِحَلهم ويوفدون اليهِ الوفود ويتواردون الى بلاطهِ ويفتخرون بصداقتهِ ويرونهُ مع ضعف قوَّتهِ الماديّة اعظم قوَّة ادبية تُعرَف في البسيطة كلها

مات لاون ! وثُلم بموتهِ رُكن الهيئة الاجتماعية التي عزَّز دعائمها برسائلهِ العجيبة وأيَّد نظامها الألفي وتصدَّى لكلّ من

حاول بتعاليمه الفاسدة ان ينقض اساسها المتين

مات لاون ! وادركت بموتهِ ضربةٌ اليمة العلومَ والآداب بعد ان احيا معالمها ونشر انوارها الساطعة فلم يدعْ علمًا الَّا ودعا الى دراستهِ بانشاء المكاتب العليا والجمعيَّات العلميَّة والمعاهد الفنيَّة بحيث جارى سلفَهُ وسمِّيَهُ لاون العاشر واستحقَّ مثلهُ ان يُدعى بمعزّز الآداب وابي المعارف

مات لاون ! وافتقدنا موتهُ نحن الشرقيين حبرًا كبيرًا وعلَمًا شهيرًا لم يألُ جهدَهُ في رفع منار الكنائس الشرقيَّة وإعادتها الى بهائها القديم فعرف لهُ الشرقيُّون جميل صنائعهِ ودعوهُ شكرًا منهم « بابا الشرق » فلا بدع اذا عدُّوا فقدهُ اليوم كاعظم نائبةٍ الَّمت بهم فاستنزفت دموع عيونهم

*

مات لاون ! لكنهُ في موتهِ هو اعظم منهُ في حياتهِ . هو الشيخ الذي مُني بضروب النكبات مدَّة خمس وعشرين سنة وغالتهُ اغوال الزمن فتلقَّاها وهو رابط الجأش دون أن تصرعهُ الشدائد او تضعضعهُ حوادث الدهر . وكان من آخر اقوالهِ التي تلفَّظ بها انهُ يريد ان يموت واقفًا كأني بهِ البطل الشجاع يتلقَّى الموت ببسالة ليريَهُ انهُ اشدُّ منهُ قوَّةً واعظَم نفسًا . ومصداقًا لهذا القول كان وهو على عتبة باب ابديّته ينظم الاشعار الاخيرة مستغيثًا

بالفادي وملتجئًا الى العذراء الطاهرة ومقرئًا الوداع لابنائهِ المسيحيين

مات لاون ! لكنهُ ذهب محفوفًا بالشرف والعزّ في ختام سنة يوبيلهِ الفضيّ الذي كان كانتصار عظيم لهُ وللدين الذي كان هو إمامهُ بعد أن رأى في بلاط الواتيكان ملكيْ دولتين فخيمتين غير كاثوليكيَّتين ادَّيا لهُ كلّ شارات التجلّة والاكرام فضلًا عمَّا وردهُ من رئيس الولايات المتَّحدة وبقيَّة الدُّول من آيات الولاء والاحترام . وما شعر قداستهُ بمرضهِ الاخير حتى تواردت الرسائل البرقيَّة من كل خوافق العالم تستفحص عن صحتهِ الثمينة وقد بلغت هذه الرسائل ١٢٠٠٠ في اليوم

مات لاون ! لكن الموت لم يدركهُ كما قال في خطابهِ الاخير للفيف الكرادلة الَّا بعد ان اتمَّ المهمَّة التي عهد الله بها اليهِ . وتُرى ماذا كانت هذه المهمَّة ؟ اشرف المهمَّات واعظمها . وطَّد اركان الكنيسة بجمع كلمتها . ردَّ قلوب البنين الى ابيهم . وسَّع حظيرة المسيح فادخل فيها امَمًا جديدة حتى زاد عدد المؤمنين في عهدهِ نحوًا من سبعة آلاف الف . جعل البابويَّة في مقام رفيع فاضطرَّ الامم جمعاء ان ترنو اليها بالحاظها وتعظِّم رتبتها في العالم . جذب الى سجنهِ ملوك الارض وسلاطينها فاقرُّوا لهُ بالسَّبق واعترفوا لهُ بالسيادة . وفي الاجمال حقَّق شعارَهُ الذي خُصَّ بهِ فكان نورًا ساطعًا استضاءت بانوارهِ اقطار المسكونة فهداها الى سُبل الامن والخلاص . فلا غرو أن

ردَّد عند وفاته كلمة مخلصهِ السيد المسيح على صليبهِ: ها هوذا قد تمَّ

فادخل أيُّها العبد الامين فرح سيدك . وبين يديك العشر الوزنات التي ربحتها في متاجرتك الصالحة

اذهب بثقةٍ وسلام الى ابديَّتك حيث يستقبلك الفادي الذي مجَّدتَ اسمهُ على رؤوس الاشهاد واثبتَّ ملكهُ السامي على العالمين وكرَّست لقلبهِ المجيد قلوب البشر كلها . ترحَّب بك العذراء التي نشرتَ عبادتها وكتبت عن ورديَّتها تلك الكتابات البليغة المُعربة عن تُقاك البنويّ . يتلقَّاك جمهور اولياء الله الذين نظمتهم في سلك القديسين ولفيف معلّمي الكنيسة الذين احييتَ اسماءهم الشريفة وناديتَ بفضلهم

اذهب ولا تدع الكنيسة التي قُلّدت تدبيرها زمنًا طويلًا مترمّلةً دون قائد يضبط زمام امرها . نَلْ لها من مراحم العليّ أن تُعطي راعيًا صالحًا يقفو آثارك ويكون على مثالك نورًا للامم ومجدًا لشعب اسرائيل

اقبل سلامًا اخيرًا من بنيك أبا ... راعي الرعاة وحبرَ الله لاوونُ
لئن نأيتَ عن الابصار مرتحلًا ... فانَّ حبَّك في الاحشاء مكنونُ